

رواية «النهايات» لعبدالرحمن منيف (دراسة في الشخصية والمكان)

عباس كنجعلي^{١*}، سيدمحمد أحمدنيا^٢

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الحكيم السبزواري

٢. طالب ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الحكيم السبزواري

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٩/١٣؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/١٠/٤)

المُلخَص

تتركز العناصر الفنية في الرواية الحديثة على معطيات كثيرة برزت بروزا واضحا في الأبحاث النقدية. وللرواية عناصر متنوعة تقوم عليها بنيتها السردية ولكننا ندرس في هذا المقال الشخصية والمكان وهما من أبرز العناصر الروائية التي أخذ بها عبدالرحمن منيف في روايته «النهايات». ورواية النهايات تعتبر من أقصر روايات منيف ولكنها رواية مليئة بالأفكار. وأحداث هذه الرواية تدور في كثف القحط الذي تعيشه قرية «الطيبة» وتعامل هذه القرية البائسة معه. ويستهدف هذا المقال أن يتعرض تعرضا موجزا لشخصية عبدالرحمن منيف ومكانته الروائية ودوره في تطوير الرواية العربية وأن يعالج الشخصية والمكان في «النهايات» وعلاقتها في هذه الرواية معتمدا في خطتها على المنهج الوصفي- التحليلي. والنتائج تدل على أن الكاتب قد استطاع أن يصور عنصر الشخصية والمكان تصويرا بارعا كما أنه وظفهما توظيفا فاعلا وحولهما إلى عنصرين مؤثرين مفيدتين للتعبير عن أفكاره ومقاصده وهذه تيسرت له بفضل خلق علاقة وثيقة فنية بين هذين العنصرين.

الكلمات الرئيسية

الشخصية، عبدالرحمن منيف، عناصر الرواية، المكان، النهايات.

مقدمة

لا شك أن فن الرواية قد احتل موقعا متميزا في الأدب العربي المعاصر؛ فقد تمكن هذا الفن الحديث نسبياً خلال فترة زمنية قصيرة من توسيع قاعدة مخاطبيه إلى حد بات معه ينافس فن الشعر الذي كان طوال تاريخ الأدب العربي هراً عالياً لا يكاد يطاوله فنٌ ولا يرقى إلى مرتبته أي نوع أدبي آخر (ربابعة والذغول، ١٣٨٢هـ: ١٤٠).

إن الروائي العربي المعاصر قد أصبح - اليوم - هو المؤرخ والمصوّر الحقيقي لكثير من أحداث الأمة وقضاياها من خلال تقديم شخصيات مأزومة فكريا ومهشمة اجتماعية ومجموعة سياسيا ومغتربة إنسانيا. وهذه الشخصيات الروائية التي تعاني وتناضل من أجل نفي عذابات الذات وتحقيق أهداف المجتمع صارت تشغل اليوم مكانة رفيعة في شرفات فنون القص (وادي، ١٩٩٦م: ٩).

ولعبدالرحمن منيف دور ريادي بارز في الرواية العربية خاصة في مجال الرواية الملتزمة التي تناقش قضايا الإنسان العربي المعاصر، وتحلل الظروف السياسية والاجتماعية والنفسية التي يعيشها (ربابعة والذغول، ١٣٨٢هـ: ١٤٠). وإضافة إلى هذا أن ثقافته المتميزة واطلاعه على علوم العصر وتخصصه في مجال العلوم النفطية أسهمت في إغناء هذه التجربة؛ فرواياته نالت منزلة رفيعة وترجم بعضها إلى اللغات الفارسية والإنجليزية والفرنسية والروسية و...

وتعدّ رواية «النهايات» من أهم روايات عبدالرحمن منيف التي تناولت المجتمع البدوي في قرية واقعة على تخوم الصحراء؛ فجميع الأحداث تدور في كنف القحط الذي تعيشه قرية «الطيبة» وكيف تتعامل معه هذه القرية البائسة.

وإن قراءة منيف من معادلة الشخصية والمكان تظهر دوره الريادي في تطوير الرواية العربية الحديثة (القاسم، دون تا: www.nabih-alkasem.com). ولهذا تقوم في هذا المقال بدراسة أبرز العناصر الفنية في بناء الرواية - نعني الشخصية - وصورها، ثم نتعرض للمكان بوصفه أحد المكونات الحكائية التي تشكل بنية الشكل الروائي، حيث تجري فيه الحوادث وتتحرك خلاله الشخصيات؛ وهذا ما يثبت العلاقة الوطيدة بينهما. فهناك انفعالات وتأثيرات بين المكان المأزومة المجدبة في رواية النهايات وبين أزمات شخصية الرواية، الفكرية منها والاجتماعية والإنسانية. وما دفعنا للدراسة هذه هو إلقاء الضوء على العنصرين

المذكورين للكشف عن المعادلة التي أشار إليها بعض النقاد في أعمال منيف متبعين المنهج الوصفي- التحليلي؛ كما وأن دافعنا الآخر في اختيار الرواية والروائي هو أهمية فن الرواية في الأدب العربي المعاصر بشكل عام و«النهايات» بشكل خاص، ثم المكانة السامية التي احتلها منيف. والسؤال المطروح هنا هو كيف استطاع منيف أن يستخدم الشخصية والمكان للتعبير عن أفكاره وآراءه وهل تمكن من عملية امتزاج فني بين هذين العنصرين في سبيل توظيف مقاصده؟ وافترضنا بداية الأمر - حسب المناسبات الظاهرة الموجودة في الرواية بين عنوانها وبدايتها ومكانها - أن الصورة المكانية تلعب فيها دوراً وظيفياً هاماً وأما الشخصية فمن المتوقع أن تتأثر بالمكان مرتبطة به لئلا تظهر الرواية خلافاً للواقع.

وأما بالنسبة لخلفية البحث حسب إطلاعنا وما حصلنا عليه فقد كثرت الدراسات في العالم العربي حول منيف والبعض من رواياته الشهيرة وكذلك الشأن بالنسبة للنهايات وهناك أيضاً الدراسات غير المستقلة في الموضوع والتي إستفدنا مما عثرنا عليه مشيرين إليها في فهرس المصادر وإضافة إلى ذلك كلها فقد ألّفت مقالتان باللغة الفارسية في النهايات؛ الأولى: «تحليل زمان روایی رمان فرجامها از عبدالرحمن منيف بر اساس دیدگاه زمانی ژرار ژنت» (دراسة الزمن السردی في رواية النهايات لعبد الرحمن منيف وفقاً لنظرية جيرار جنيت الزمنية) الصادرة عن إيران، مجلة لسان مبین، العدد ١٢؛ والثانية: «كارکرد انتقادی درون مایه در رمان فرجامها» (وظيفة المضمون الانتقادية في رواية النهايات) الصادرة عن إيران، مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية وآدابها، العدد ٣١. هذا وأنه ما تمت دراسة مستقلة حتى الآن عالجت موضوع الشخصية والمكان في النهايات والتي قمنا بالبحث عنها. ولا يفوتنا أن الرواية قد نقلت إلى اللغة الفارسية باسم «پایانها» على يد يدالله ملايري ولقد صدرت سنة ١٣٩١ش عن دار مروارید.

نبذة عن حياة المؤلف وأعماله

وُلد عبد الرحمن منيف في مدينة عمان/ الأردن عام ١٩٣٣م لوالد سعودي من نجد، وأم عراقية. أنهى المرحلة الثانوية في عمان، ثم التحق بكلية الحقوق في بغداد عام ١٩٥٢م وهناك نشط في العمل السياسي المعارض، مما أدى إلى طرده عام ١٩٥٥، فواصل دراسته في جامعة القاهرة، وفي عام ١٩٥٨ سافر إلى يوغسلافيا وتابع دراسته في جامعة بلغراد، فحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، وفي اختصاص اقتصاديات النفط/ الأسعار والأسواق عام ١٩٦١م.

قدم إلى سوريا بعد حصوله على الدكتوراه وعمل في الشركة السورية للنفط، وفي عام ١٩٧٣ قصد لبنان وعمل في مجلة «البلاغ»، ثم سافر عام ١٩٧٥ إلى العراق وتولى تحرير مجلة «النفط والتنمية» حتى عام ١٩٨١ حيث غادر العراق إلى فرنسا وتفرغ للعمل الأدبي. وفي عام ١٩٨٦ عاد إلى سوريا واستقر في دمشق حيث أقام حتى اليوم الأخير من حياته ٢٤ كانون الثاني ٢٠٠٤ متفرغاً للعمل الأدبي ومشاركاً في هيئة تحرير «قضايا وشهادات» (كتاب ثقافي دوري يصدر فصلياً بالاشتراك مع د. فيصل درّاج والمسرحي السوري المعروف سعدالله ونوس) (القاسم، ٢٠٠٤م: ١٩).

حصل منيف على جائزة الرواية العربية في المؤتمر الأول للرواية الذي نظّمه المجلس الأعلى للثقافة في مصر، إضافة إلى عدد من الجوائز الأدبية الأخرى. وقد ترجمت معظم كتبه إلى لغات متعددة، كالإنكليزية والألمانية والنرويجية والإسبانية والتركية والفرنسية وغيرها (النهايات، ٢٠٠٧م: ٢١٦).

مكانة عبدالرحمن منيف الروائية ودوره في تطوير الرواية العربية

احتلت روايات منيف منزلة رفيعة من الناحية الفنية؛ فبالرغم من أن المناخ العام المليء بالقهر والاستبداد واللامنطق وغياب الديمقراطية وتغييب الشعب، هو الذي أفرز الموضوعات الروائية الجادة... ويرى أن الكلمة تحتل مكاناً بارزاً، فهي تساوي التضحية ولا تقلّ ضرورة عن حمل السلاح (عابدين، دون تا: ٧٩).

اشتغل الدكتور عبدالرحمن منيف بالسياسة منذ فترة طويلة ولعل هذه التجربة أثرت في شخصيته وجعلته يسعى إلى اكتشاف موقع الإنسان من الظلم والاضطهاد والضياع، والمحاولة لحلّ هذه القضايا. ومن هنا يحدد منيف أهم وظائف الرواية على المستوى الفني والموضوعي فيقول: «إن المقصود ليس قضاء وقت وانحدار دمعين كي تريح ضميرك، وإنما يجب عندما تنتهي الرواية أن تبدأ أنت... إن الروايات المهمة يبدأ أثرها عندما تنتهي...» (السامرائي وفاضل، دون تا: ٧).

ويرى عبدالرحمن منيف أن للرواية العربية في المرحلة المعاصرة أهمية متزايدة وأن لها الدور الريادي من بين الفنون الأدبية الأخرى في إظهار المشاكل والجروح والصورة الحقيقية للوضع الذي يعيشه الإنسان العربي المعاصر. يقول منيف عن أسباب هذه الأهمية: «تزايد أهمية الرواية العربية في المرحلة الراهنة سنة بعد أخرى. وهذا ناتج عن كونها مرآة للوضع العربي بهوموم ومشاكله وأحلامه، ومن المرجح أن تزايد هذه الأهمية خلال العقود القادمة،

شريطة أن تصبح هذه المرأة أكثر اتساعاً وشفاءً وأن تكون أقل احديداً أو تقعرأً ويتحقق ذلك حين تعكس الرواية الواقع والحلم، وحين تتصدى للمشاكل الأكثر أهمية وإلحاحاً، وتظهر الصورة الحقيقية للوضع الذي نعيشه بكل تضاريسه وأجزائه واحتمالاته» (منيف، ٢٠٠٣م: ١٩).

ويعتقد منيف أن تأسيس الرواية العربية وتطويرها لا بد أن يعتمد على منبعين هما: التقاليد المحلية والتراث العالمي. حيث يقول: «إنَّ همَّ تأسيس الرواية العربية وتطويرها وتجديدها، يجب أن ينبع ويعتمد على تقاليد محلية، مع الاستفادة من التراث العالمي، أما إن يكن همَّ الرواية العربية مخاطبة العقل الغربي بالقفز عن القارئ العربي وتجاوزه، وبالتالي تصوير الواقع العربي فولكورياً لإرضاء الغرب وإظهار البراعة وإتقان الصنعة حسب مقاييسهم، فلن يؤدي إلى قيام الرواية العربية، بل بالعكس سوف يضعف ويؤخر ما تكون فيها» (منيف، ١٩٩١م: ٢٠٩).

وكما ذكرنا آنفاً: «إن قراءة منيف ضمن معادلة الزمان والمكان والشخصية تظهر دوره الريادي في تشكيل وتطوير الرواية العربية الحديثة، كما تظهر محاولته للاستفادة من تقنيات السرد الغربي وأشكاله، والعودة إلى التراث العربي، وإذا أخذنا خماسية «مدن الملح»- فهي وإن كانت عن صدمة الحداثة، ونشوء المجتمعات الاستهلاكية التي لم تتخل عن بداوتها، تظل عملاً ملحيمياً- نرى بأنَّه وظف فيه التراث الشعري والمخزون التراثي البدوي، وقام من خلال هذا المزج برصد تحولات منطقة في العالم العربي، تغيرت بفعل ثنائية القمع والنفط (القاسم، دون تا: www.nabih-alkasem.com).

ملخص الرواية

ظهرت رواية منيف الخامسة «النهايات» عام ١٩٩٧م وتأتي بعد رواية «قصة حب مجوسية» فيقصر حجمها. عرفت هذه الرواية نجاحاً كبيراً على مستوى القراءة حيث أنها عرفت ١٢ طبعة حتى عام ٢٠٠٧ وقد ترجمها روجر ألن إلى الإنكليزية. «وهي رواية مكتوبة بلغة شاعرية، تدور أحداثها في قرية تدعى «الطيبة» يحل فيها القحط فتغير فيها الحياة والأشياء والبشر، ويصبح للصيد قيمة كبيرة فيظهر بطل الرواية «عساف» وهو صياد له فلسفة خاصة وأسلوب خاص في الصيد إذ لا يصيد من الطير والحيوان إلا عندما تكون الحاجة ماسة إلى الطعام، ويصيد بأسلوب إنساني ويوزع ما يصيده على الفقراء والمحتاجين، فله مكانة متميزة في «الطيبة». وفي أحد الأيام يأتي إلى القرية ضيوف من المدينة يصرون على «عساف» أن يكون قائدهم في رحلة صيد حوالي «الطيبة». لكن تهب عاصفة قوية وتسبب موت عساف مع

كلبه. ويكون هذا الموت سببا في تغيير القرية وثورتها من أجل إصلاح أوضاعها المتردية» (العلي، ٢٠٠٥م: www.forum.moe.gov.com).

الشخصية

تعتبر الشخصية أحد أبرز العناصر الفنية في الرواية؛ فهي «مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة» (هلال، ١٩٩٧م: ٥٦٢). وتعد الشخصية أهم المشكلات السردية «لأنها هي من يقوم بالحوار، وتصف المواقف، وتقوم بالحدث، وينطلق منها الصراع، وتعمر المكان، وتتفاعل مع الزمن، وتصطنع اللغة» (أبو علي، ٢٠٠١م: ٢٣٨). فهي التي يتسرب الكاتب إلى قلبها ويحاول أن يبصر العالم بعينها ويحسه بمشاعرها وأحاسيسها. ومن هنا نقول إن الشخصيات لا بد أن تمثل دور مفكري مجتمعاتهم ومنتقدي عصرهم، وإن كانت الرواية، رواية خيالية (فرزاد، ١٣٧٩هـ: ١٣٣). وكلما ازدادت إيديولوجية الروائي وقدرته التعبيرية في كتابة الرواية، ازدادت مقدرته في خلق الشخصية ونموها؛ إذ إن الشخصيات هي مدار الروايات كلها (فرزاد، ١٣٧٩هـ: ١٣٥).

شخصية الرواية عند منيف

يقول منيف «ومن التحديات الكبيرة التي تواجه الروائي: كيفية التعامل مع شخصيات روايته، لأن الشخصية الروائية بقدر ما هي من خلق الكاتب، حتى لو كان لها جذر واقعي في إحدى المراحل، فإنها ما أن تبدأ أولى خطواتها في الرواية حتى تصبح لها حياة مستقلة، ومن حقها، ومن حق من يتعامل معها، أن يحكم على السلوك والخيارات. وبالتالي تعتبر الشخصية في مراحل عديدة خالقة لنفسها ومسؤولة عن تصرفاتها، بغض النظر عن النوايا أو الأهداف التي رسدها لها الروائي أو رصدت نفسها لها. فالروائي قبل أن يشرع في العمل تكون لديه رغبة أو تصور لما يجب أن تكون هذه الشخصية أو تلك من شخصيات روايته، من أجل أن تلعب دورا يحقق غرضا أو يهدف إلى مغزى، وهذا يجعل الروائي يختار الشخصيات بمواصفات تساعد في الوصول إلى ما يريد» (منيف، ٢٠٠٣م: ٣٩). وإنه يقول: «فإن الشخصية في الرواية لا تقاس أو تحدد بالمساحة التي تحتلها وإنما بالدور الذي تقوم به وما يرمز إليه هذا الدور. وأيضا مدى الأثر الذي تتركه في ضمير القارئ، مما يدفعه للتساؤل والمقارنة، تمهيدا لتصويب موقفه في الواقع وبالفعل تجاه هذا الموضوع الأساسي» (منيف، ١٩٩٩م: ١٤٩). فتدل هذه الآراء على أهمية الشخصية عند الروائيين عامة وخاصة بالنسبة إلى روايي يعنى بها وتأثيرها على

القارئ؛ كما يفهمنا ما ذهب إليه منيف - وبغض النظر عن التحكيم في مدى نجاحه في أعماله الروائية - أنه كان يسلك في كتابة الرواية على المسار الملتزم الصحيح وكان في محاولة مستمرة لتأدية دور الرواية خير الأداء.

صورة الشخصية في روايات منيف

هناك الحلم والهزيمة في شخصيات روايات منيف، فترى شخصيات منيف «على تنوع مواقفها من الحلم وحسب ظروفها ومقاماتها وحالاتها العقلية والنفسية، تكون لها طموحات وأمان ورغبات وشهوات وإرادات، فهمها متعلق دوماً بشيء ما ترنو إليه وتهتز له» (القسنطيني، ١٩٩٥م: ٦). وتنتقل بعدها إلى الهزيمة، حيث «كانت بعض الشخصيات مستسلمة فتوعة راضية بما قسم لها، إما لأنها غير واعية بوجود ما هو أفضل مما تحياه وتعانيه، أو أنها تعرف ذلك لكنها تخاف دفع لمن هو أقوى منها سلطة وقدرة على الردع، فتقتل الحلم فيها قتلا. وسواء سبقت الهزيمة بالحلم أم لم تسبق، فإنها لم تخرج عن أن تكون السقوط والفشل والخيبة والجبن والتراخي» (القسنطيني، ١٩٩٥م: ٦٨). إذن «إن معظم شخصيات منيف الروائية، شخصيات فقدت رشدها من هول ما عانته وتحملته من عذاب واضطهاد وتشرد وضياح، فلامست حواف الجنون وأخذت تكلم نفسها، كما يكلم المجنون نفسه، اعتقاداً منه بأنه هو العاقل والآخرون هم المجانين الذين لا يستحقون الكلام معهم» (النابلسي، ١٩٩١م: ٤٨).

ونجح عبد الرحمن منيف في تصوير شخصياته التي صورها باستمداد من الواقع العربي، وحاول البحث عن أدوات الإدانة من داخل هذا الواقع، بوساطة شخصيات تنتمي إليه وتعيش فيه، وقد وفق في رسم شخصيات واقعية حية تتنفس الأجواء العربية المليئة بالضباب والفوضى والإرتباك، شخصيات إشكالية تبحث عن جنة النعيم، وهي تتلوى في جحيم النار (ولعة، ٢٠١٠م: www.startimes.com).

ويمكننا أن نرى شخصية منيف من خلال شخصيات رواياته؛ إذ إن شخصيات روايات منيف مرآة تعكس شخصيته. «فالشخصيات في عالم عبد الرحمن منيف تتشكل دائماً من نبع الذات الكاتبة وتنفرس بكل ما تحمل من رؤى وأفكار داخل النص لتؤدي وظيفتها السردية عبر رؤية الكاتب وفكره الخاص، لذلك نجد الشخصيات الفاعلة المقموعة، والسجينة، والمتحررة والمهمشة ترد داخل النص عبر استراتيجية تؤسس لتشكيل الفعل المنوط بها، وشخصيات عبد الرحمن منيف تبرز على الورق وكأنها شخصيات مرجعية تنطق بأفكار الكاتب وإيديولوجيته

المنبئة داخل نصوصه السردية. هل تلمص عبد الرحمن منيف شخصياته وقال من خلالها كل ما كان يريد أن يقوله؟ أعتقد أن هناك نسبة كبيرة من الإضاءة التي وضعها منيف في أعماله السردية تتبع أساساً من عبد الرحمن منيف ذاته، لذا كانت الشخصيات الروائية هي المرأة التي من الممكن أن نرى فيها ومن خلالها عبد الرحمن منيف الكاتب والرواي في نفس الوقت» (شوقي بدر، دون تا: www.annidaa.org).

الشخصية في النهايات

لقد خصّ منيف قسماً عظيماً من روايته (النهايات) لوصف الشخصيات وطبائعهم وتصرفاتهم؛ فهو في كثير من الأحيان يغور في هذا الوصف بكل دقائقه بين الحين والآخر. كما يتحدث عن شيوخ طيبة وعن أناسها ضمن عاداتهم وتعاملاتهم (على سبيل المثال أنظر: منيف، ٢٠٠٧م: ١٦، ١٧ و٢١). فيتحدث عن مجانيها وعن غرائب أعمالهم (منيف، ٢٠٠٧م: ٢٩). كما يصف المختار ويرسم حالاته ليلة موت عساف بطل الرواية (منيف، ٢٠٠٧م: ١٠٦-١٠٧). وأنه يحاول أحياناً أن يرسم ضمير الشخصيات ويكشف عما يجول في خاطرها وداخلها. فيقول مثلاً: «ابن الطيبة، كبيراً كان أم صغيراً، يعرف كيف يسمع، وإن كان الصغار، بشكل خاص، أكثر قدرة على الإصغاء» (منيف، ٢٠٠٧م: ١٧). وهدف منيف من هذا التوظيف - الذي يعتبر براعة روائية بالنسبة له - هو وصف الشخصيات الرئيسة وصفاً دقيقاً، وإدخال القارئ في صعيد من التناقضات وبالتالي في ساحة التفكير في آمال الشخصيات وشرح الحوادث.

الشخصية الرئيسة (البطل)

يمثل «عساف» في رواية النهايات، نموذجاً من نماذج الشخصيات الروائية الرئيسة المحورية. وعساف في هذه الرواية «هو الذي يبدأ الرواية وهو الذي ينهيها، وهو الذي يسرد منها أجزاء كبيرة. ولقد إتبع منيف في تقديمه للشخصية المحورية في هذه الرواية أسلوباً مختلفاً عما اتبعه في رواياته السابقة. ففي هذه الرواية قدم لنا منيف شخصية عساف من خلال مقطع وصفي سريع ومتدفق دون اللجوء إلى توزيع هذا المقطع الوصفي على سطح المساحة النصية للرواية كلها، بحيث يأخذ كل فصل من فصول الرواية نصيبه العادل من هذا الوصف، لكي يشعر القارئ باكتمال رسم معمارية الشخصية بالتزامن مع نمو أحداث الرواية نفسها» (التابلسي، ١٩٩١م: ١٧٧). فتسرب منيف إلى قلب عساف وخاطره محاولاً رسم واقع «طيبة» وحوادثها بعين عساف.

والمهم في الشخصية - بوصفها عنصراً هاماً في الرواية والقصة القصيرة - هو تطورها وتحولها عبر الحوادث. فتتشكل الشخصية أثناء الوقائع وتهذب وهكذا تعرض للقارئ تكامل البشر أو سقوطهم عن الموقف الإنساني (فرزاد، ١٣٧٩هـ: ١٣٥). وعلى هذا الأساس، تتكامل شخصية عساف الساذجة والمجنونة والغامضة عبر الرواية وتتحول إلى شخصية مقدسة وكاملة. وهذا «فورستر» يسمي الشخصية إذا كانت عاجزة عن التحول والكمال، شخصية ساذجة أو السطحية. فالشخصية الكاملة هي التي تواجه القارئ بالمفاجآت وتثير إعجابه باستمرار بطريقة منطقية وإذا لا تعجبه فهي تلك الشخصية الساذجة البسيطة. وإذا كانت الشخصية معجبة غير مقنعة فهي التي تتظاهر بالكمال وإن لم تتصف به حقاً (فورستر، ١٣٥٢هـ: ٨).

صور شخصية عساف في الرواية

لقد اجتمعت لدى بطل الرواية (عساف) شخصيات متنوعة تتوزع في كل الرواية توزيعاً منظماً. ومن هذه الصور:

صورة عساف المجنون

«كل البلاء من المجنون الكبير عساف!» (منيف، ٢٠٠٧م: ٢١).

«إن ما يقوله هذا المجنون (عساف) لا يشبه الكلام الذي يقوله غيره. إن فيه شيئاً من الحقيقة» (منيف، ٢٠٠٧م: ٤٥).

صورة عساف الغامض والمجهول

«عساف الرجل الذي يعرفه أهل الطيبة كلهم، نساءً ورجالاً، كباراً وصغاراً، هو نفسه عساف الذي يبدو غامضاً ومجهولاً بالنسبة للجميع» (منيف، ٢٠٠٧م: ٣٣).

«وحتى لو أراد أن يتحدث فإن حديثه يبدو غامضاً متداخلاً، ولا يستطيع أحد أن يتابعه» (منيف، ٢٠٠٧م: ٣٥).

«لو أراد أن يقول بضع كلمات لكي يفسر ما يدور في عقله فلن يستطيع» (منيف، ٢٠٠٧م: ٥٠).

«في المرات القليلة التي تكلم، تحدث بشكل غير مفهوم، وكأنه يحدث نفسه» (منيف، ٢٠٠٧م: ٨٩).

فشخصية عساف الغامضة والمجنونة - الذي يتحدث غير واضح وكأنه يتحدث نفسه حيث لا يفهمه الناس - هي رمز للعربي الذي لا يستطيع التعبير عن أفكاره ومقاصده لفقدان الحرية والاستبداد الموجودة.

صورة عساف الوحيد

«يقضي وقته كله خارج البلدة وحيداً ينتقل من وادٍ إلى آخر ومن جبلٍ إلى آخر» (منيف، ٢٠٠٧م: ٣٤).

«وعساف الذي تعود خلال فترة طويلة أن يخرج إلى الصيد وحيداً مع كلبه... أو في سنة من سنوات القحط. كان يتمنى لو يبقي وحيداً» (منيف، ٢٠٠٧م: ٤٨).

فالغربة هي من أبرز ميزات بطل الرواية (عساف)، وهي ظاهرة في كثير من العبارات التي تتعلق بوصف هذه الشخصية وربما نشأت الغربة هذه عن شخصية منيف نفسه الذي يئس من النشاطات السياسية والحزبية. وعلى أي حال، إن غربة عساف رمز للإنسان في المجتمع العربي، ومرآة تعكس غربة «طيبة» كلها.

لكن الملاحظ هو أن «عساف لم يكن في غربته مفتربا سلبيا، بل على العكس من ذلك، فقد كان مفتربا ايجابيا، بمعنى أن لديه الحل لإشكالية غربته. وهذا الحل يتمثل في أن يقوم كل فرد من أفراد بلده بالصيد» (النايلسي، ١٩٩١م: ٥٢٨).

صورة عساف الشفيق

«عساف الحصان، عساف الغيمة، أبو الفقراء، الذي لا ينام ساعة في الليل من أجل أن تعيش الطيبة وتبقى... عساف الذي يحب الجميع، ويقتل نفسه حتى يستمر الناس... عساف زينة الرجال» (منيف، ٢٠٠٧م: ١٠٦).

«في هذا الغم الذي يلف الطيبة من كل جوانبها ويزداد يوما بعد آخر، كان عساف لا يهدأ ولا يستريح» (منيف، ٢٠٠٧م: ٤٧).

فعساف يتمتع بشعور إنساني عميق، يبذل النفس والنفيس لمساعدة المساكين والبؤساء ولهذا يسمّى أبو الفقراء.

صورة عساف الشهيد والقديس

إن صور التي جاءت من عساف في نهاية الرواية يقربه إلى الشهداء والقديسين:

«عساف لم يموت موتاً طبيعياً، مات من أجل الطيبة، مات شهيداً» (منيف، ٢٠٠٧م: ٢٠٥).

«حمل عساف. خرج من المضافة محمولاً على نعش وملفوفاً بقماش أسود. ويؤكد جميع من رأى المشهد أن عساف لم يكن محمولاً وإنما كان يطير. كان طائراً ينتقل من مكان لآخر أسرع مما كان يفعل الطير» (منيف، ٢٠٠٧م: ٢٠٦).

صورة عساف في الصيد

عساف صياد له فلسفة خاصة وأسلوب خاص في الصيد إذ لا يصيد من الطير والحيوان إلا عندما تكون الحاجة ماسة إلى الطعام ويصيد بأسلوب إنساني ويوزع ما يصيده على الفقراء والمحتاجين (العلي، ٢٠٠٥م: www.forum.moe.gov.com). وعساف كان يقول بعد كل جولة صيد: «أنا عساف الفهد، لا أرغب في الصيد لمجرد القتل ولا أصيد أكثر مما يجب، إلا في الأوقات الضرورية» (منيف، ٢٠٠٧م: ٨٩).

وفلسفة الصيد هي مساعدة الفقراء واستخلاصهم من الجوع كما جاء في قول عساف: «لم يخلق الصيد للأغنياء أو الذين يقتلهم الزهق والشبع. لقد خلق للفقراء وللذين لا يملكون خبز يومهم» (منيف، ٢٠٠٧م: ٧١).

فسعاف لا يصيد الطيور والحيوانات كلها بل يستثنى الإناث حفظاً لفصيلتها وحماية للبيئة الحيوية إذ يعتقد أن صيد الإناث يساوي الهلاك؛ إذن فهو يصيد اضطراراً لا لعباً وفرحاً. «ينبه عساف بتأكيد حازم: لا تقتلوا الإناث، إنها رزقنا الباقي... لكن عساف يخاف هؤلاء الصيادين، ويخاف أكثر من ذلك أن يأتي يوم لا تجد الطيبة طيراً تصيده. كان يقول بصوت مليء بالأسى: - هذه الطيور لنا، اليوم أو غداً، وستبقى لنا إذا حافظنا عليها» (منيف، ٢٠٠٧م: ٤٩). و«بهذه الطريقة كان يتعامل مع الصدف وبهذه الفلسفة الغامضة يتصرف، ويريد من الآخرين أن يتصرفوا» (منيف، ٢٠٠٧م: ٥٠).

إهمال شخصية المرأة

تمثل المرأة في الرواية العربية المعاصرة محورا هاما ورئيسا وما من رواية عربية إلا وفيها صورة من هذا المحور الهام. ولكن لا امرأة في «النهايات»! ماذا قصد منيف من هذا الإهمال؟

لقد أشار الدكتور بطرس دلّة في حديثه عن كتاب «الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف» للأستاذ «نبيه القاسم» إلى أنّ هذا الإهمال يتعلّق بموضوع رواية النهايات، يعني موضوع الصيد وهو رياضة ذكورية نادرة ما تُمارسها المرأة إلا في حالات شاذة؛ وهذا دليل يقنع القارئ بأنّ منيف محقّ في هذا الإهمال، لكنّ الدكتور «دلّة» أشار في تلخيصه هذا للكتاب - قبيل ما نقلناه عنه - إلى أنّ «المرأة لم تحصل عند منيف على دور بطولي في رواياته» وكتب في نهاية تلخيصه أيضا: «ومما يميز الشخصية النسائية لدى منيف أنّ

النساء في رواياته يفتقدن للمشاعر والعواطف - باستثناء الشيخة زهوه ووداد الحايك - لأنهن يقمن بوظائفهن التي رسمت لهن كزوجات أو أمهات أو بنات أو أخوات، أمّا العواطف المتدفقة والأنوثة المميزة والحب الجارف والعشق الفاضح فلا مكان لها في نفوس هذه الشخصيات. فكأنهن قد قُدرن من جبال الملح، نساء ليس لهن وظيفة في الحياة، إلا النكاح والولادة (دثة، ٢٠١٠م: www.nabih-alkasem.com).

ويبدو لنا من خلال هذا كله أنّ منيف بهذا الإهمال يطرح موضوعاً موحهاً، فهو لا يطرح المرأة صدفة بل أنه أراد بإخفاءها أن يبين أنه ليس دور للمرأة في المجتمع العربي، فهو مجتمع رجولي يتمتع الذكور بالحقوق أكثر من الإناث وهذه صفة من صفات المجتمع العربي ونظام السلطة.

ومن طريف ما تجدر الإشارة إليه نسبة لعنصر الشخصية في هذه الرواية، هو فقدان شخصية إنثوية فيها. فاستفاد منيف من تقنية الغيبة، فلا امرأة في النهايات، لا لأن موضوعها الصيد - وهو خاص للذكور -، بل لأنه أراد أن يصيح خافتاً بأنه لا دور للمرأة في المجتمع العربي ناقدا الظروف الموجودة. فغيبة المرأة إذن، هي صراخ في وجه العالم العربي في تضييع حقوقها.

تحول الشخصية في نهاية «النهايات»

تتحول شخصيات أهل «طيبة» في الفصول الأخيرة من الرواية إثر التحول الذي تحدث في شخصية عساف يعني تضحيته بنفسه فداء للقيم الإنسانية.

فترى في ختام الرواية تغييراً أساسياً في رؤية أهل الطيبة، هؤلاء الذين اجتمعوا في بيت المختار ليلة موت عساف، فموت عساف يوقفهم من الغفلة فيختلف صباحهم عن ليلتهم تلك، فيطلب منهم المختار أن يسهروا للتحدث والمناقشة وهذا هو أثر الرواية ووظيفتها الانتقادية على قول روجر آلن - أستاذ في النقد الأدبي بجامعة ولاية بنسلفانيا - في بحثه القيم حول النهايات (ملايري، ١٣٩١هـ: بايگاه خبري تحليلي سفير).

والراوي الذي حكى نص «النهايات»، لم يقفله بعد انتهاء الناس من تشييع جثمان عساف إلى مثواه الأخير، بل تركه مفتوحاً في نهاية مراسم الدفن التي تضمنت قيام فعل بقيت نتائجه غير معروفة، وذلك حين أمر المختار أهل الطيبة - بعد أن لقي اقتراحه استجابة واسعة لديهم - بأن يذهبوا إلى المدينة ليجتثوا مع المسؤولين أمر بناء السد للمرة الأخيرة (أحمد، ١٩٩٨م: ٨٦). هكذا ينتهي «النهايات»:

«لن أعود إلى الطيبة مرة أخرى إلا لأحمل بندقية وأبقى في الجبل، ومن هناك ومع الآخرين سوف نعمل شيئاً كثيراً غير الصيد. أما إذا وافقوا علي بناء السد فسوف أعود على ظهر بلدوزر لكي يبدأ العمل، ولكي تبدأ الطيبة تعرف معنى الحياة بدل هذا الموت الذي تعيشه كل اليوم. وخيم الصمت من جديد ولم يكن يسمع سوى دوي السيارات علي الطريق الأسفلتي وهي تتجه إلى المدينة» (منيف، ٢٠٠٧م: ٢١٢).

يرى منيف الكلب في «النهايات» بطلاً حيث يقول: «في كثير من الروايات يمكن لكل شخص وربما لكل شئ أن يكون بطلاً... فالكلبان في «النهايات» و«حين تركنا الجسر» ليسا مجرد حيوانات، إنهما مخلوقات تعلم الإنسان الكثير من خلال وفائها وتحملها، وبالتالي كان الكلبان في هاتين الروايتين أبطالاً» (منيف، ٢٠٠٣م: ١٦-١٧). وفي اللوحات التالية من مشهد موت عساف يتبين لنا أن البطل هو الكلب في الحقيقة: «وفوق الرأس تماماً كان الكلب رابضاً»، «كان يشكل سياجا حول جسد عساف»، «كان يحتضنه»، «عساف مات قبل الكلب»، «لكن الكلب، وفي محاولة لحماية عساف صارعها حتى صرعه»، «انظروا إلى الدماء المتجمدة فوق رأس الكلب»، «لقد مزقته بمنافيرها لتصل إلى عساف» و«فيما هو يدافع عن نفسه، وعن عساف، تهشم» (منيف، ٢٠٠٧م: ١٠٩-١١٠).

إن هذه الجمل اللاهثة التي تصف مشهد موت عساف، تركز بطريقة ذكية غير مباشرة على الكلب الوفي الذي خاض صراعاً مريراً ضد العاصفة كي يحمي عسافاً وينقذه من الموت. ويظل هذا الموقف في «النهايات» أكثر المواقف غني بالدلالات والانفعالات؛ فالكلب يناضل بشراسة فداء لعساف الإنسان (بوشعير، ٢٠٠٤م: ٢٨٤).

المكان

إن المكان أحد المكونات الحكائية التي تشكل بنية الشكل الروائي، فقد امتثل للتطور الذي طرأ على الرواية العربية، فبات يتوضع داخل المجال الحيوي في النص الحكائي وتصدر الواجهة كشخصية اعتبارية مستقلة فاعلة ذات قدرة على تحديد مسار العلاقات بين الشخصيات ونمط الأحداث والوقائع، وذلك في إبداع عدد من الروائيين العرب (أحمد، ١٩٩٨م: ٥). و«المكان فضاء ينقضي عمل الرواية فيه ويتداعى في الذهن سواء أكان واقعياً أو خيالياً» (بورنوف وأوتلة، ١٣٨٧هـ: ١٤٠). و«يهتم الكاتب والقارئ إلى مكان الرواية لتدوين الخصوصية المكانية والزمانية للرواية؛ إذ يعيش الشخصية في الخلاء ولا يقدر الراوي أن يخلق عالمه الذهني (فيخلق مكاناً

لإظهار شخصيته فيه). إذن يؤثر المكان على العمل الروائي وعلى شخصيات الرواية تأثيراً قوياً» (ميرصادقي، ١٣٦٤هـ: ٢٩٤).

ويؤدي المكان دوره في العمل الروائي مثل أي ركن آخر من أركان الرواية، لذا لا يمتلك المكان تكويناً ثابتاً أو محايداً، بل يعطي العمل الأدبي هوية معينة، وهو اكتسب أهميته في معظم روايات عبد الرحمن منيف، ولذلك يقول عبد الرحمن منيف في تقديمه لروايته «أرض السواد»: في هذه الرواية الحدث هو العراق، وفي «مدن الملح» و«النهايات» تؤدي «الصحراء» دوراً عظيماً... ومعظم الأمكنة التي تتحول في روايات عبد الرحمن منيف، تتحول بشكل طبيعي، لكن تحولاتها تشكل أحداثاً صاعقة وعاصفة، مرتبطة بالتدمير الكلي للمكان، ثم البناء بشكل جديد لا يمت إلى الأصل بصلة. ويصاحب تدمير أو خراب المكان، تدمير البشر أيضاً، تدمير علاقاتهم الإنسانية وعاداتهم وتاريخهم، ويؤسس بناؤها الجديد شرخاً كبيراً بين «ما كان» وما «هو الآن»، وكذلك يؤسس لرؤية ضبابية لما سيكون عليه الغد. وفي هذا التحول للمكان علامات على التخلخل النفسي العميق الذي تتعرض له حيوات الشخصيات، إذ تتشكل صدمة المكان حين يدمر على نحو قاس ومهين (إبراهيم، ٢٠٠٣م: ١٨). ويبرز المكان في روايات منيف كأجلى ما يكون، ولكنه يتميز بخصوصية نظرة منيف إليه وتعامله معه،... وبهذا يخلق منيف في رواياته مكاناً متميزاً، يجمع بين الخصائص المحددة الحقيقية التي قد تنطبق على كل عاصمة عربية، مما يجعله كاشفاً للواقع العربي وفاضحاً له وإن لم يلتزم بالتحديد مدينة ما (القاسم، ٢٠٠٥م: ٦١).

والرواية تبدأ بالقحط وبهذا الخطاب تأخذ القارئ إلى جو القحط المحزن. «إنه القحط، القحط مرة أخرى! في مواسم القحط تتغير الحياة والأشياء... وحين يجيء القحط لا يترك بيتاً دون أن يدخله ولا يترك إنساناً إلا ويخلف في قلبه أو في جسده أثراً» (منيف، ٢٠٠٧م: ٧). فيشعر القارئ بحالة من الحزن والخوف والقلق فور دخوله عالم الرواية وهذا هو واجب عنصر «المكان».

و«الطيبة» هو اسم البلدة في «النهايات» وكلمة الطيبة في هذا النص الحكائي تجمع بين جمال الطبيعة والطبع والحياة، وبين معنى البقاء في ذاكرة البشر. ويكون اسم «الطيبة» مناسباً للمكان، ومعبراً عن تجلياته وموحياً لكنهه، لأنه جمع في معناه ما يتميز به المكان من ملامح جغرافية ومزايا اجتماعية وهو ذو قيمة فنية؛ لأنه يمكن لمتلقي هذا النص الحكائي الولوج إلى عالم المكان الداخلي ببسر وبساطة (أحمد، ١٩٩٨م: ٤٨). و«الطيبة في النص

الحكايات المعنون بالنهايات قدمها الراوي مقترنة بميزات العامة التي تجعلها تتشابه بوجودها مع بقية القرى والمدن الأخرى» (أحمد، ١٩٩٨م: ٦٦). و«إن منيفا في هذه الرواية يصير على تعميم المكان دون تخصيصه. فالأوصاف التي يطلقها على بلدة الطيبة في هذه الرواية يمكن أن تطلق على أية بلدة أخرى. ومنيف يؤكد هذا من خلال وصفه للطيبة» (النابلسي، ١٩٩١م: ٢٥٨). فهذا ما نشاهده في هذه الرواية: «وإذا كان لكل قرية ولكل مدينة في هذا العالم ملامحها وطريقتها في الحياة، ولها أسماؤها ومقابرها، وإذا كان لكل قرية ومدينة مخاتيرها ومجانينها... فقد كان للطيبة أيضاً حياتها وطريقتها في المعاش، وكان لها مقبرتها وأعراسها، وكان في الطيبة مجانينها أيضاً» (منيف، ٢٠٠٧م: ١٣).

و«الطيبة مثل أي مكان في الدنيا، لها أشياءها التي تفخر بها. قد لا تبدو هذه الأشياء خطيرة، أو ذات أهمية بالنسبة لأماكن أخرى، لكنها بالنسبة للطيبة جزء من الملامح التي تميزها عن غيرها من الضيع والقرى. وهذه الأشياء تكونت بفعل الزمن، وبفعل الطبيعة القاسية» (منيف، ٢٠٠٧م: ١٥) و«إن الطيبة مثل كل القرى والبلدان الأخرى التي تشبهها، من حيث القسوة والسخرية ورغبة التندر واختلاق بعض الأكاذيب، وفي اغتياب الناس أيضاً» (منيف، ٢٠٠٧م: ٣٩).

إن بلدة «الطيبة» ليست واحة سعيدة في عالم قفر بقدر ما هي صورة عن الشرط الإنساني في مساره التاريخي المعقد وفي مجابهته لأسطورة التقدم. وتتجلى الإحالة إلى الشرط الإنساني العام من رمزية الاسم أولاً. فطيبة اسم لمدن كثيرة نشأت في المنطقة العربية عبر حضارات متوالية منذ أقدم العصور ومنها تلك التي تناولها نجيب محفوظ في روايته التاريخية «كفاح طيبة». وتتجلى خاصة في تركيبها الحضارية المعقدة: تعددية في الوظائف الاقتصادية (من فلاحين ورعاة وصيادين) والطبقات الاجتماعية والنظم السياسية والأعراف الفكرية، في تواصل ملتبس مع المدينة - الحاضرة، التي تمثل حركية التقدم المفترض (حلاق، ٢٠١١م: www.aljaml.com).

وليس لـ«النهايات» مكان محدد تعرف به وهذا يعود - على حد قول صاحبها - إلى المشاكل التي تعاني منها المجتمعات العربية كلها؛ إذن الطيبة - بوصفها مكان هذه الرواية - رمز للمدن العربية المأزومة وإن تمثلت في القرية. فوظف عبدالرحمن منيف، كل مقومات العمل الروائي الفنية للتعبير عن الأزمة، وطرح إشكاليات عديدة، من بينها إشكالية الثقافة

والفكر وهي إشكالية مطروحة في الساحة الثقافية منذ بداية ما عرف بعصر النهضة (إبراهيم، ٢٠١١م: الموقع الإلكتروني نادي الفكر العربي).

علاقة المكان بالشخصية

ومما لا شك فيه هو أن للبيئة دور هام في تكوين الشخصيات وعلى هذا فشخصيات الرواية تتأثر بالمكان وإن عاشت هذه الشخصيات لفترة قصيرة في بيئة معينة. فعلى الروائي أن يصور تأثير المكان على الشخصيات تصويراً واضحاً؛ إذ الرواية تبرز خلافاً للواقع عند إهمال عرض هذا التأثير (يونس، ١٣٨٤هـ: ٢٢).

وتعني رواية «النهايات» عناية كبيرة بوصف المكان، والمكان فيها قرية «الطيبة» التي تكاد تكون «البطل» الرئيس في الرواية؛ لأن الرواية تدور عليها، وهي تؤثر تأثيراً عميقاً في شخصية «عساف» إذ تحدد معالم وأبعاد شخصيته، كما توجه أحداث الرواية. يتميز عبدالرحمن منيف بين الروائيين العرب المعاصرين بحس جارف وحاد للطبيعة وهذا الحس للطبيعة عنده هو بعض من حسه المكاني، وهو يفيض دائماً على القارئ ويدخله في غمرته مجدداً كل مرة تأكيداً على حضوره وخطورته. وفي هذه الرواية تبدو بجلاء قدرة منيف على إيصال هذا الحس للطبيعة إلى القارئ بشكل حي. ومن هنا تبدو «الطيبة» بعاداتها وتقاليدها وطبيعتها وصحرائها، في الرواية، مخلوقاً حياً يمتلك كل مقومات وخصائص الكائنات الحية. إنها شخصية حية تتحرك أمامنا وتحسب مختلف الأحاسيس فتحب وتكره وتغضب وترضى وتسهم إسهاماً فعالاً في توجيه الأحداث ورسم مصائر الأشخاص (العلي، ٢٠٠٥م: www.forum.moe.gov.com).

يمزج «منيف» جماليات المكان أيضاً بنشأة البطل «عساف» وتكوينه ليصير الأخير مرآة تحرف «الطيبة» وتبرز غرابتها (عبدالسلام، دون تا: www.arabicstory.com).

إذن هناك علاقة وثيقة بين المكان والشخصيات، ولا يمكن تصور انفصام هذه العلاقة حيث كل له دور تجاه الآخر، فالمكان يكشف عن الشخصيات وهذه الأخيرة تعطي للمكان قيمته من خلال تجربتها فيه... فالتسليم بهذه العلاقة (علاقة التأثير والتأثر) يؤكد أن المكان قطعة شعورية وحسية من ذات الشخصية نفسها، لذا لا غرابة في أن الروائي يلجأ عند تصميم المكان إلى مطابقة هذا المكان مع طبائع الشخصيات ومزاجها، ويجعله كاشفاً عن الحالات اللاشعورية للشخصيات، ومساهماً في التحولات التي تطرأ عليها، وكأنه هنا يقوم بدور العاكس^١ لمشاعر

الشخصيات وأحاسيسها، بل يمكن أن يقوم بدور الشخصية ذاتها باعتباره تصويراً لغوياً يشكل معادلاً حسيًا ومعنويًا للمجال الشعوري والذهني للشخصية (بثقة، ٢٠١٠م: ٢).

إذن يجب أن يخلق المكان جواً مؤثراً على الشخصيات وتصرفاتها وحوادث الرواية وبالتالي على النتيجة كلها. هكذا أثرت أرض «النهايات» المجدبة على الحوادث وعلى الشخصيات تأثيراً عميقاً؛ فساعد الكاتب في استنتاج الوقائع والحوادث. وامتزج وصف المكان بتصوير أحوال شخصية الرواية ونوعها، مع وجود انسجام خاص بينهما وهذا هو حالة قلق عساف واضطرابه الفكري من جهة ومكان طيبة المجدب من جهة أخرى. فهذا التعامل والانسجام بين الشخصية والمكان حول المكان إلى عنصر ذي فاعلية وتأثير.

ويمكن أن يؤدي المكان دور حالات الشخصية الرئيسة في الرواية على سبيل المجاز؛ وعلى هذا الأساس، فقرية طيبة المجدبة والمأزومة هي مجاز عن شخصية عساف المجهور. فالمكان إذن ليس وجوداً فيزيائياً فقط بل هو عنصر يكون الشخصيات حسب ظروفه.

ولقد ازدادت أهمية المكان إلى درجة يتحول إلى الشخصية الرئيسة في الرواية. فيعتقد روجر آلن أن البطل الرئيس هو مجتمع القرية: «البطل الرئيسي هو مجتمع القرية ككل إذ بالرغم من أن الرواية تصور أفعالاً لأفراد غير أن الأثر الذي تحدثه هذه الأفعال يرى ضمن الصورة الكلية أي صورة القرية كوحدة واحدة وأي رسم للشخصيات إنما ينبع من خلال وصف أفعالهم هذه وليس عن طريق التحليل الداخلي وبدرجة أقل من خلال الحوار وهو قليل نسبياً في هذه الرواية ولا يتعرف القارئ في حقيقة الأمر سوى على أربعة أسماء لشخصيات» (آلن، ١٩٩٧م: ٢٩٢).

وبصوّر منيف المكان في «النهايات» من خلال شخصية الناس وحياتهم ويطيل إطالة كبيرة في وصف المكان من خلال حياة الناس التي تعيش في هذا المكان: تصرفاتهم، وأمالهم، وأحلامهم، وأخلاقهم، ومشاعرهم. فمنيف هنا لا يصف المكان في ذاته، ولكنه يصف المكان من خلال البشر. «وأهل الطيبة الذين يمتازون بقدرة خارقة على الحديث، يدركون أن الرعاة فقدوا هذه الميزة لكثرة ما عاشوا مع الحيوانات في البراري» (منيف، ٢٠٠٧م: ١٧). «كان أهل الطيبة يعرفون كيف يديرون الحديث بتلك الطريقة العجيبة التي تجعل الأمور ذات أهمية شديدة. وهذه الميزة التي يتوارثها الأبناء عن الآباء، تجعلهم في نظر الكثيرين نوعاً خاصاً من الناس، وتجعلهم أكثر من ذلك قادرين على التأثير في الآخرين» (منيف، ٢٠٠٧م: ١٦). «صحيح

أن الطيبة، مثل أماكن أخرى كثيرة، شحيحة الأرض، قليلة المياه، لكن فيها شيئاً يجذب الإنسان ويشده إليها شداً محكماً» (منيف، ٢٠٠٧م: ٢٣).

النتائج

يمكن أن نعتبر المكان المجدبة المأزومة - الذي برز بروزاً واضحاً ومستمرًا في نسيج رواية «النهايات» - أرضية وخلفية لها. هذا وأن تعاملات الشخصية الرئيسية في الرواية وتصرفاته مع قرية طيبة قد زادت على أهمية المكان، حيث إن المكان ليس مساحة لمجرد وقوع الحوادث وحركات الشخصيات فيه، بل إنه يعتبر آلية للتعبير عن آراء الكاتب؛ كما وأن المكان يحمل على عاتقه مهمة أخرى، ألا وهي تكوين الشخصيات وتطويرها شيئاً فشيئاً حيث يتحول عساف إلى البطل خلال الحوادث.

وقد استطاع منيف أن يقرب الرواية بواقع الحياة في المجتمع العربي بفضل ترسيمه ظاهرة القحط المخيفة والمأزومة وبفضل وصفه هذه الأزمات في جوّ الرواية وبيان أثرها على الشخصيات.

ويدل وجود العلاقة الوطيدة بين عساف وقرية طيبة وانسجامهما على أن منيف قد استطاع بتوظيفه عنصري الشخصية والمكان أن يعبر عن أزمات المجتمع العربي الإنسانية منها والسياسية والاجتماعية والفكرية وأن يؤثر على القارئ بعرضه له فكرة الرواية.

وإن التطور الفكري والثقافي في شخصيات الرواية وأهل طيبة في ختام الرواية وحركتهم نحو الإصلاح والتغيير - نتيجة للتأثر من تعامل عساف مع المكان المجدب - يوضح لنا أن الكاتب ليس هدفه من تصوير الحوادث استمتاع القارئ وتلذذه فحسب بل أنه يقصد رسالة هامة ومقاصد رفيعة.

المصادر والمراجع

١. آلن، روجر (١٩٩٧م). *الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية*. ترجمه حصه إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة.
٢. إبراهيم، صالح (٢٠٠٣م). *الفضاء ولغة السرد في روايات عبدالرحمن منيف*. بيروت: المركز الثقافي العربي؛ نقلا عن المستقبل، الثلاثاء ١٠ شباط ٢٠٠٤، العدد ١٥١٨، ثقافة وفنون.
٣. _____ (٢٠١١م). *أزمة الحضارة العربية في أدب عبدالرحمن منيف*. الموقع الالكتروني: نادي الفكر العربي، <http://archive.nadyelfikr.net>، ٢٠١١/٥/٧.
٤. أبوعلي، نبيل خالد (٢٠٠١م). *في نقد الأدب الفلسطيني*. ط ٣، غزة: دار المقداد.
٥. أحمد، مرشد (١٩٩٨م). *المكان والمنظور الفني في روايات عبدالرحمن منيف*. حلب: منشورات دار القلم العربي.
٦. بتقة، سليم (٢٠١٠م). *تلمسات نظرية في المكان وأهميته في العمل الروائي*. مجلة المخبر، العدد ٦، بسكرة: جامعة محمد خيضر.
٧. بورنوف، رولان واوتلة، رئال (١٣٨٧هـ). *جهان رمان*. ترجمة نازيلا خلخالي، طهران: نشر مركز.
٨. بوشعير، الرشيد (٢٠٠٤م). *مسألة النص الروائي في أعمال عبدالرحمن منيف: دراسة الرؤى والأشكال والعتبات والأنماط والصور*. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
٩. جرار، ماهر (٢٠٠٥م). *عبدالرحمن منيف والعراق*. بيروت: المركز الثقافي العربي.
١٠. حلاق، بطرس (٢٠١١م). *رواية الصحراء عند عبدالرحمن منيف: حادثة متجذرة في المكان*. السفير، الموقع الالكتروني www.aljaml.com، ٢٠١١/٤/٥.
١١. دلّة، بطرس (٢٠١٠م). حديث عن «الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف». جريدة «الاتحاد»، ٢٠١٠/١٠/٧؛ نقلا عن موقع الكاتب الفلسطيني د. نبيه القاسم: www.nabih-alkasem.com.
١٢. ربابعة، بسام علي؛ والزغول، أحمد محمد (١٣٨٢هـ). *الروائي الأردني عبدالرحمن منيف وشرق المتوسط*. مجله دانشكده ادبيات وعلوم انساني دانشگاه تهران، صص ١٣٩-١٥٦.
١٣. السامرائي، ماجد وفاضل، جهاد (دون تا). *مقابلة مع عبدالرحمن منيف*. مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٦.
١٤. شوقي بدر، يوسف (دون تا). *الرواية السياسية عند عبدالرحمن منيف*. الموقع الالكتروني: النداء، www.annidaa.org.
١٥. عابدين، نزار (دون تا). *مقابلة مع عبدالرحمن منيف*. مجلة عالم المعرفة، العدد ٢٠٤.

١٦. عبدالسلام، محمد سمير (دون تا). *عبدالرحمن منيف الوجه الجمالي للشخصية العربية*: www.arabicstory.net.
١٧. العلي، أحمد (٢٠٠٥م). *الصورة في الخطاب الروائي*. الموقع الإلكتروني: المنتدى التربوي، وزارة التربية والتعليم، سلطنة عمان، www.forum.moe.gov.com، ٢٠٠٥/١٢/١٦.
١٨. فرزاد، عبدالحسين (١٣٧٩هـ). *درياره نقد ادبي*. ط ٣، طهران: نشر قطره.
١٩. فورستر، ادوارد مورگان (١٣٥٢هـ). *جنبه هاي رمان*. ترجمة إبراهيم يونس، طهران: اميركبير.
٢٠. القاسم، نبيه (دون تا). *عن الزمان والمكان والشخصية في اعمال الاديب عبدالرحمن منيف*. نقلا عن موقع الكاتب الفلسطيني د. نبيه القاسم: www.nabih-alkasem.com.
٢١. _____ (٢٠٠٤م). *شخصية الانسان الشعبي في روايات عبدالرحمن منيف*. جريدة الأهالي، قسم الثقافة: الخميس ١٣/٥/٢٠٠٤.
٢٢. _____ (٢٠٠٥م). *الفن الروائي عند عبدالرحمن منيف*. كفرقرع: دارالهدى للطباعة والنشر.
٢٣. القسنطيني، نجوى الرياحي (١٩٩٥م). *الحلم والهزيمة في روايات عبدالرحمن منيف*. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
٢٤. منيف، عبدالرحمن (١٩٩١م). *الكاتب والمنفى*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢٥. _____ (١٩٩٩م). *بين الثقافة والسياسة*. بيروت: دارالبيضاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢٦. _____ (٢٠٠٣م). *رحلة ضوء*. ط ٣، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢٧. _____ (٢٠٠٧م). *النهايات*. ط ١٣، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع.
٢٨. مير صادقي، جمال (١٣٦٤هـ). *عناصر داستان*. طهران: نشر شفا.
٢٩. النابلسي، شاكراً (١٩٩١م). *مدار الصحراء: دراسة في أدب عبدالرحمن منيف*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٣٠. هلال، محمد غنيمي (١٩٩٧م). *النقد الأدبي الحديث*. بيروت: دار العودة.
٣١. وادي، طه (١٩٩٦م). *الرواية السياسية*. القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية.
٣٢. ولعة، صالح (٢٠١٠م). *صورة المثقف العربي في روايات عبدالرحمن منيف*. منتديات ستار تايمز، ٢٠١٠/٣/١٣.
٣٣. يونس، إبراهيم (١٣٨٤هـ). *هنر داستان نويسي*. ط ٨، طهران: نشر نگاه.